

وهذا البلد الأمين «المسجد الحرام»

■ بقلم الاستاذ محمد مصطفى ناصيف

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٦، وثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: "المسجد الحرام" قلت: ثم أي، قال: "المسجد الأقصى" قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم جعلت الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصل، وقال مجاهد وقتاده: لم يوضع قبله بيت، وظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس، وكونه موضوعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس؛ فأما سائر بيوت الله فيكون كل واحد منها مختصاً بمكانه لمجموعة من الناس، وكون البيت مشتركاً فيه بين جميع الناس لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعاً للطاعات والعبادات وقبلة للخلق.

الله فيه في الأرض، وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وأن البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً لعموم الناس ومهوى أفئدة المؤمنين، حيث يولون وجوههم شطره في اليوم خمس مرات في صلاتهم، كما أنه لا تمر ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها مؤمنون يتوجهون

فدل قوله تعالى: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ﴾ على أن هذا البيت وضعه الله موضعاً للطاعات والخيرات والعبادات، فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات وموضعاً للحج، ومكاناً يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه، والمراد من هذه الأولوية كون هذا البيت أولاً في كونه مباركاً وهدى للخلق، وقال الحسن البصري: هو أول مسجد عُبد

بقلوبهم ويتجهون بأجسادهم نحوه، كما لا ينفك المسجد الحرام يفيض بالطائفين والعاكفين والركع السجود.

وما دام الأمر كذلك فلم تكن الكعبة المعظمة منفكة قط عن توجه قوم إليها في أي طرف من اطراف العالم لأداء فرض الصلاة، ونظراً لدوران الأرض وكرويتها فكل وقت فريضة، يمكن أن يكون فرض صبح لقوم، وظهر لثان، وعصر لثالث، ومغرب لرابع، وعشاء لخامس، ويمكن تصور الصفوف المحيطة بالكعبة المشرفة تتصل دوائرها حال اشتغالهم بالصلاة إلى أي متصل في المسجد وفي سائر أرجاء العالم يستشعرها ويتلمسها من واطب على الجماعة (التي جعل ثوابها سبعة وعشرين ضعفاً عن صلاته فذاً) حيث يحصل فيما بين هؤلاء المصلين اتصال في الأرواح وترايط في القلوب والمشاعر والضمائر.. ومن ذاق عرف.

كما خص المسجد الحرام بالبركة والهداية، وبأن من دخله كان آمناً، وهو أول مسجد جعل قبله، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "هذا البيت دعامة الإسلام، من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله، إن قبضه ان يدخله الجنة، وإن رده يردّه بأجر

أو غنيمة" (رواه الترمذي).

أما فضل من صلى فيه فقد ورد عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "الصلاة في مسجدي هذا أفضل ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، والجمعة في مسجدي هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وشهر رمضان في مسجدي هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام" (رواه الترمذي).

❖ المسجد الحرام ومراحل عمارته في

التاريخ:

منذ عهد ابراهيم عليه السلام إلى عصر النبوة المحمدية فالخليفة الأول ابو بكر رضي الله عنه، لم يكن للمسجد الحرام جدار، وكانت دور اهل مكة المكرمة محدقة به من كل جانب، وبين الدور ابواب يدخل منها الناس، حتى استخلف امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رأى عام ١٧هـ أن المباني قد لاصقت الكعبة المعظمة، حيث ضاق المطاف على الطائفين فارتأى بحكمته المعهودة شراء البيوت التي تحتاجها التوسعة المرتآة فهدمها ووسع المنطقة حول الكعبة المشرفة، وقد أبى بعض اصحاب هذه الدور قبض ثمنها لامتناعهم

عن البيع، فقال لهم: انتم نزلتم على الكعبة ولم تنزل عليكم الكعبة.. انما هو فناؤها، ثم وضع اثمانها في خزانة الكعبة فأخذوها بعد ذلك.

ثم انشأ سوراً يضم المطاف وفي وسطه الكعبة المعظمة بارتفاع لا يزيد على قامة الإنسان وأمر بوضع المصابيح عليه وجعل له ابواباً، وأقام سداً لمنع السيول من اقتحامه، فكان عمر رضي الله عنه أول من اتخذ للمسجد جداراً.

ولما كان زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكثر الناس ورأى الحاجة ماسة لتوسعة المسجد، فاشترى دوراً ووسع بها المسجد الحرام سنة ست وعشرين للهجرة، وجعل للمسجد أروقة فكان أول من اتخذ للمسجد الحرام أروقة.

ولما كان زمن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه زاد في المسجد الحرام زيادة كبيرة سنة اربع وستين للهجرة واشترى دوراً كثيرة من جملتها دار الأزرقى جد (الأزرقى) صاحب تاريخ مكة، وسقف أروقتة بالساج المزخرف وكسى اعمدته بالرخام، ثم اهتم بعمارة المسجد الحرام عبد الملك بن مروان الذي عمره عمارة حسنة سنة ٩١هـ وسقفه بالساج دون زيادة فيه سوى رفع جداره، ليقوم ولده الوليد

بعده بتوسعته بنقض عمارة والده وتجديدها تجديداً محكماً حيث سقفه بالساج المزخرف والآزر وجملته من الداخل بالرخام المميز، وجعل له شرفاً، وجعل في وجوه الطيقان من اعلاها فسيفساء شامية مميزة، وهو أول من جعلها بالمسجد الحرام وأول من نقل اليه اساطين الرخام.

ثم لما افضت الخلافة للعباسيين قام ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس بتوسعة المسجد الحرام من الجانب الشامي (الشمالي)، ومن جانبه الغربي (الركن اليماني) ولم يجعل فيما وسعه من الجانبين إلا رواقاً واحداً حيث ابتداء بعمل التوسعة هذه في محرم سنة سبع وثلاثين ومائة، وثم الفراغ منه في ذي الحجة سنة أربعين ومائة، وكانت زيادة المنصور هذه بمقدار نصف ما كان عليه من قبل، وبعد وفاة المنصور نال المسجد الحرام عناية بالغة من ولده المهدي فقام بعمارته مرتين اولها: توسعة المسجد الحرام سنة احدى وستين ومائة من الجانب اليماني وادخلت دار الندوة فيه.

أما توسعته في الثانية فكانت سنة اربع وستين ومائة عندما قدم حاجاً حيث رأى الكعبة المعظمة في شق من خارج المسجد وقربها من البناء الآخر، فكره ذلك وأحب أن

تكون متوسطة للمسجد الحرام فتمت التوسعة المناسبة لذلك أيضاً.

وتابع الخلفاء العباسيون توسعة المسجد الحرام كلما دعت الحاجة اليه حيث قام الخليفة المعتضد بالله سنة ٢٨٤هـ بتوسعة ما يعرف بباب الزيارة، ثم المقتدر بالله الذي قام بتوسعة ما يعرف اليوم بباب ابراهيم، اضافة إلى تجديد بناء المسجد.

أما الخلفاء العثمانيون فكانوا يعتبرون الإهتمام بالبيت الحرام فخاراً لهم فأولوه رعايتهم وعنايتهم وكان من اهم الخلفاء الذين اهتموا بالحرم بناء وتوسعة وتجميلها السلطان سليم الثاني الذي أمر عام ٩٧٩هـ بتوسعة المسجد الحرام وان يستبدل السقف بقباب دائرية بالأروقة على احسن اتقان وابدع نظام واجمل شكل حيث تم تنفيذ ذلك خلال اربع سنوات من عام ٩٨٠هـ حتى عام ٩٨٤هـ، واهتم ولده السلطان مراد خان بعده بعمارة الأروقة وتجديد بناء المسجد.

❖ التوسعة السعودية للمسجد الحرام:

نظراً لتزايد عدد المسلمين وخاصة ضيوف الرحمن ايام الحج، رأت الحكومة السعودية أن تعمل على توسيع الحرم المكي الشريف، حيث كان اهتمام الملك سعود بن

عبد العزيز، زائداً بتوسعة المسجد الحرام، فأصدر أمره بدراسة مشروع (توسعة المسجد الحرام) توسعة شاملة كاملة بإشراف لجنة عليا برئاسة الملك فيصل، وذلك استيعاباً لمئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام في يوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأول عام ١٣٧٥هـ الموافق ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٥م، واحتفل بوضع حجر الأساس لذلك المشروع العظيم في يوم ٢٣ شعبان ١٣٧٥هـ الموافق ٥ نيسان ١٩٥٥م وشملت التوسعة المسجد الحرام، كما تم توسعة ساحة الطواف حول الكعبة المعظمة، وتغطية مقام ابراهيم بغطاء زجاجي مصنوع من الكريستال الفاخر مع حاجز حديدي وقاعدة رخامية، حيث رصدت الحكومة السعودية آنذاك مئات الملايين من الريالات السعودية لهذا المشروع المبارك العظيم.

وقد اصبحت مساحة المسجد الحرام بعد هذه التوسعة ١٦٠١٦٨م^٢ بعد أن كانت ٢٩١٢٧م^٢ أي أصبحت مساحة المسجد الحرام خمسة اضعاف ونصف مما كان عليه قبل، وصار للمسعى ثمانية مداخل وثمانية ابواب، وعرضه ٢٠م، وارتفاع سقفه ١٢م، والسير فيه باتجاه واحد في الذهاب والإياب، واصبحت مساحة الجزء المكشوف بعد اتمام المشروع عشرة آلاف متر مربع،